الخطر، وأنه معرض للموت في كل لحظة، يحمل هذه نفحة من إبراهيم خليل الرحمن في نفسه ويغرس روح إسماعيل عليه السلام في ولده. والإثنان أسلما لله تعالى.

وفى هذا يصبح الولد من الباقيات الصالحات. هو زينة الحياة الدنيا وهل هناك زينة أجمل من الشباب المؤمن العامل للوطن والعقيدة؟.

والمال المرصود للخير، المال المزكى المكتسب من حلال. والمتجه إلى الحلال والمعد للإنفاق في سبيل الله.. هذا المال يحمل الروح الإبراهمية أيضًا.

وبهذا عندما تنفخ هذه الروح في حياة الأسرة يتحول مالها وأبناؤها من مجرد زينة الحياة الدنيا إلى جزء من الباقيات الصالحات بل يصبحان زينة وباقيات صالحات معًا.

ولقد كانت أموال صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام – والذين اتبعوهم بإحسان زينة المال وباقيات صالحات. وكذلك الصالحون من أبنائهم كانوا زينة الحياة الدنيا وباقيات صالحات. تركوا لنا العلم النافع والقدوة الصالحة. فلا تعارض بين الأمرين إلا إذا جعلت نفوسنا المال والبنين مقدمين على أمر الله وطاعته، والأمل القريب فيهم يحجب عنا الأمل الباقى في أن نكون معهم ويكونوا معنا على طريق الله وطاعته مبدؤها أمر الله ومنتهاها رضوان الله ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (الفجر ٢٧ – ٣٠).

٣٠ – ولا يظلم ربك أحدا

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ

يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

هذا هو الحديث الخاتم في القسم الأول من دروس من سورة من سورة الكهف نقف فيه عند مشهد الحساب والجزاء في الآخرة. ليبدأ القسم الثانى - بتوفيق الله - بقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ ﴾ وفيها ربط بين قصة الخلق والعمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

وأول ما تحسه وأنت تقرأ هذه الآيات الكريمة: جلال الله وعظمته.. وكيف تنتقل الآية في سرعة بين أضخم الحجوم وأصغرها فلا يضيع شيىء في مشاهد "القيامة "، وتبدأ الآية بقول الله: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةً ﴾

هذه الجبال يصفها القرآن في آيات أخرى فيقول عنها في دنيانا – دنيا العمل والاختبار:

- ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادًا ﴾ (النبأ: ٦ -٧)
- ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (النمل:٦١).

وصف الله هذه الجبال بأنها رواسى شامخات: ﴿ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴾ (المرسلات: ٢٧)

ما لهذه الجبال الراسية الشامخة وهى أوتاد الأرض قد تغير أمرها في الآخرة،ويصفها المولى جل وعلا – بقوله: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ ﴾

أول المشهد أن تسير الجبال إلى أين؟ ومرة نرى وصفها في مشهد القيامة ﴿ كَٱلۡعِهۡنِ ٱلۡمَنفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥) ومرة نقرأ قول الله: ﴿ وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ (النمل: ٨٨) ومرة نقرأ :

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ (الواقعة: ٥-٦) الجبال الراسية الشامخة.. عهن. سائرة. هباء

وانكشف وجه الأرض فإذا هى بارزة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا كأن المشهد أمامنا خلا من كل ما يميزه لا جبال. أرض منبسطة ثم يأتى مشهد ثان تتشقق الأرض. ويخرج من جوفها الخلائق من لدن خلق الله الخلق إلى أن أفناهم جميعا بالموت.. وتلقى الأرض ما فيها. يخرج الخلائق كالجراد المنتشر كالفراش المبثوث. مهطعين إلى الداع، مسرعين في الاستجابة لا يتخلف أحد وتأكيد بقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الأنبياء والمرسلون الصالحون. الظالمون والمظلومون. المتكبرون والمتواضعون. الملوك وسواد الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وعصورهم وديارهم.. ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ ما ترتيب الصفوف؟ الله أعلم كل الذى نعرفه في الدنيا صفوف التمايز في الحياة وصفوف التساوى في الصلاة وجموع التساوى في مناسك الحج.

وعرضوا على ربك صفًا: لا يحجب أحد أحدًا. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابًا.

ويسمعون من الحق جل وعلا قوله: ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ هذا خلق جديد بعد الخلق الأول، وأنتم أيها المكذبون ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾. كفرتم بالبعث والنشور والزعم هو الاعتقاد الخاطىء، فهذا يوم البعث الذى كنتم به تكذبون صدق الله العظيم: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الواقعة: ٤٩ – ٥٠).

وأنت تلاحظ أن أفعال العرض والحساب ماضية.. والفعل الماضى هنا يفيد قوة الحدوث كأننا شهدنا الآخرة: وحشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، وهذا كثير في القرآن الكريم أى استخدام الأفعال الماضية في وصف مشاهد الآخرة كأنها حدثت ونحن نسمع عنها بعد الحساب.

ونقرأ مشهدا كأننا فيه حضور مشهود ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

وتصور ـ بقدر ما يستطيع العقل البشرى أن يتصور ـ هذا الكتاب. ولكل إنسان كتاب، منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذه وراء ظهره، أما الذى يأخذ كتابه بيمينه فيستطيع القراءة، ولكن كيف يقرأ والإنسان كتابه وراء ظهره؟ ويقرأ ماذا؟ تاريخه كله ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ وتشهد جوارح الإنسان عليه تعينه على التذكر.. كل جارحة تقول: فعلت كذا وكذا.. هل تشهد جميعًا في وقت واحد أم تشهد متتابعة؟ وكيف ينتقل هذا الإحساس ليتجمع في عقل الإنسان؟ وأى يقظة تكون في الذاكرة لتستوعب هذا كله؟ وصدق الله العظيم: ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢).

وتأمل هذه الكلمة، فترى المجرمين مشفقين مما فيه، هذا عن المجرمين، أما الصالحون فقد وصفهم الله في هذا المشهد العظيم بقوله ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

ولا ظلم يوم القيامة وإنما عدل وجزاء ورحمة. ويقول الله تعالى في ختام الآية: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

فالحاضر هو ما عملوا. موقف اختفى فيه الزمن فإذا الماضى قد أصبح حاضرًا مشهودًا.. فعن أى الأمور يسأل الله عباده؟

فلتسمع إلى رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذى يرويه عنه عبد الله بن مسعود (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن عمره فيم

أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم..) (رواه الترمذى).

ومع هذا الحساب نذكر رحمة الله وستره:

قيل لابن عمرﷺ: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: (والمراد هنا مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة) قال: سمعته يقول: (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه [أى ستره ولطفه] فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم فيقرره [أى فيقرره بما عمل من ذنوب] ثم يقول: إنى سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم [وفى هذا بشرى للمؤمن المستور.. إلا أن يكون ماعمل حقا من حقوق العباد فهذا يؤاخذ عليه العبد]. ثم يعطى صحيفة حسناته [أى بيمينه] وأما الكفار [وكذا المنافقون والظالمون] فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. ألا لعنة الله على الظالمين) (رواه الشيخان).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذب). (رواه الشيخان والترمذى).

فاستقصاء الحساب ومناقشته لا يكونان إلا لمن يعذبون، وأما الحساب اليسير فهو عرض الأعمال على المؤمن فيقر بها، فيغفر الله له كما سبق في الحديث النبوى. نسأل الله أن يجعلنا منهم. ونختم هذا الحديث وهذا القسم الأول داعين الله بما تعلمنا من رسوله ﷺ.

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال:

قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء: (اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك. ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك. ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا. ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا (أى بهذه الحواس طول حياتنا وانفعنا بآثارها بعد الممات) واجعل ثأرنا على من ظلمنا. وانصرنا على من عادانا. ولا تجعل مصيبتنا في

دیننا ولا تجعل الدنیا أکبر همنا ولا مبلغ علمنا. ولا تسلط علینا من لا یرحمنا) (رواه الترمذی).

وعن شداد بن أوس ﷺ قال: کان رسول اللّٰه ﷺ یعلمنا أن نقول: (اللهم إنی أسالك الثبات في الأمر. وأسالك عزیمة الرشد. وأسألك شکر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك لسانًا صادقًا وقلبًا سلیمًا. وأعوذ بك من شر ماتعلم. وأسألك من خیر ما تعلم. وأستغفرك مما تعلم. إنك أنت علام الغیوب) (رواه الترمذی).

عن زید بن أسلم: قال علیه الصلاة والسلام: (اللهم آت نفسی تقواها. وزکها أنت خیر من زکاها أنت ولیها ومولاها. اللهم إنی أعوذ بك من علم لا ینفع ومن قلب لا یخشع ومن نفس لا تشبع. ومن دعوة لا یُستجاب لها) (رواه مسلم).

عن عائشة ـ رضی اللّٰه عنها ـ قالت: قال رسول اللّٰه ﷺ (أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، لا أحصی ثناء علیك أنت کما أثنیت علی نفسك) (رواه الترمذی والنسائی).

وآخر دعوانا أن الحمد للّٰه رب العالمین.

دروس من سورة الكهف

القسم الثاني

من قوله تعالى، وإذ قلنا اسجدوا لآدم... (الآية ٥٠) إلى آخر السورة.

٣١ـ مع آدم وقصة الخلق

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾

نحن أمام هذه الآية من السورة على مفرق طرق:

أولا- أن نقف عندها وقفة سريعة بقدر ما تمس السياق العام للعبرة. هكذا تصنع التفاسير الكاملة للقرآن، مع الإحالة إلى ما سبق عرضه عن آدم في السور السابقة وبخاصة سورتى البقرة والأعراف.

ثانيا- أن نقف عندها وقفة طويلة، نحاول بها أن نضم أطرافها، لأن هذه الأحاديث تقتصر على سورة الكهف وحدها، وتمس قصة آدم من أكثر من زاوية.. ولا نستطيع فيها الإحالة، ولا نملك إلا توسعا في الشرح.

ذلك لأن قصة آدم تمس كل إنسان. فنحن جميعًا أبناء آدم. وفى أعماق كل منا إحساس بأن بدءه ومساره في الحياة ومنتهاه، مرتبط بهذه القصة..

وليس منا من لم يسأل نفسه: لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتى بخطيئة أبى الأول؟ وإذا كان هو قد أخطأ، فلماذا هبطنا جميعا من الجنة إلى الدنيا، وفيها كل هذه المعاناة؟

هذه الأسئلة ونظائرها، ترد إلى النفس في حالات الألم والمرض والضعف، وتضع الإنسان في مواجهة القدر الذى كتبه الله، ولا يملك له دفعًا.

وقد تمر أيام وأعوام، دون أن ترد هذه الأسئلة إلى ذهنه، ويصرفه عنها الكدح في الحياة، أو السعادة بها،أو الانهماك في مسئولياتها. ولكنها تظل كامنة، ثم تصعد إلى مستوى الشعور في فترة تأمل،أو تندفع كالبركان في فترة ضيق وإحباط..

وفى حوار مع بعض الزملاء العاملين في العيادات النفسية في العالم الجديد.. ومع مرضاهم من غير المسلمين بخاصة، كان هذا التساؤل مطروحًا:

-لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتى بأبى الأول؟ وما ذنبى إذا كان هو قد أخطأ؟..

بل إن بعضهم ممن لم يبدءوا حياتهم مسلمين كان اهتداؤهم إلى الإسلام، منبثقا من هذه التساؤلات، وقائما على دراسة مقارنة عن بدء الحياة الإنسانية، كما وردت في أكثر من دين.. هذا إذا كان بحثهم يدور في الإطار الدينى والمقارنات، أما البعض الآخر.. فآثر ترك الأمر جميعا، وحاول أن يكون هو المسئول عن حياته وموته.. وإذا كان قد جاء إلى الحياة دون اختيار، فمن حقه أن ينهيها وقت ما شاء... ولهذا النفر من المنتسبين إلى الماديين، أو الوجوديين أو العلمانيين، حديث مقبل..

لعل في هذه المبررات ما يدعو إلى شئ من الإفاضة في قصة آدم، وإن لم ترد عنها في سورة الكهف إلا هذه الآية.. وهى قد جاءت وسط مشاهد الآخرة وما سبق أن قام به الإنسان في الدنيا.. وكأن السياق يربط البدء والحياة والمعاد في نسق واحد.. إنه الحياة بكاملها خلقا وعملا وجزاء..

ونعود إلى قصة آدم.. ولنذكر أنه أول نبى. وأن النبى الخاتم محمدا عليه الصلاة والسلام - في ليلة المعراج - لقيه في السماء الأولى.. ومن ذرية آدم جاء أولو العزم من الرسل والأنبياء، والصديقون والشهداء.. كما جاء الذين ظلموا أنفسهم، ولم يتبعوا سبيل المؤمنين.

وصدق الله العظيم.. ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (سورة طه: ١٢٣: ١٢٦)

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾

ماذا كان قبل هذا المشهد؟ يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة)

ونتأمل قوله تعالى﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم ﴾ ونقف طويلاً عند كلمة (لكم) أي كرامة؟ أن يخلق الله لنا السماوات والأرض..لكم: آدم وذريته.. أنت وأنا.. وآباؤنا من قبلنا.. وأهلنا ومن حولنا.. والأجيال من بعدنا. هؤلاء جميعا من الأب الأول إلى آخر ذريته في حياتنا الدنيا تشملهم هذه الكرامة((لكم)).

ونتأمل التأكيد بعدها ﴿ مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ هذه الأرض الممتد الذلول، بكل غطائها الصخري والنباتي والحيواني. هذه البحار وما تحوي من ثروات. هذا الغلاف الجوى بهوائه ورياحه وسحابه وأمطاره. هذه الدورة المائية بين السماء والأرض، التي تبدو فيها وحدة الخلق ووحدة الخالق.

ومع المطر النازل الذى تحيا به الأرض بعد موتها ، ينزل الوحى من السماء على القلوب التى أعدها الله لتقبله: المرسلين والأنبياء.. ومن قلوبهم وألسنتهم وعقولهم تفيض الحكمة وتتحدد مسالك الهدى.

من أجل هذا يقترن القرآن ـ كثيرًا ـ نزول المطر ونزول الوحى. حياة الأرض وحياة القلوب. إكرام الأرض بالنماء، وإكرام الإنسان بالتقوى.

ولنعد إلى سورة الرعد لنقرأ آيتين:

- الأولى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ (الرعد: ١٧).
- الثانية: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (الرعد: ١٩).

ونرى فيها آثار رحمة الله، فالأمر من أوله كرم ورحمة. كرم تقرؤه في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ولقد كان الإنسان من أول أمره مخلوقًا كونيًا جامعًا بين الأرض والسماء: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص:٧١، ٧٢).

الطين مادة الأرض. ليس قطعة محددة من الأرض. ولكنه كل الأرض. ولنقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،والسهل والحزن، والطيب والخبيث)) (رواه أبو داود الترمذى عن أبى موسى الأشعرى)

الأحمر والأسود تدل على اختلاف الألوان. السهل والحزن تدل على اختلاف الطباع سماحة ووعورة، لينا وقسوة، والطيب والخبيث تدل على اختلاف الأخلاق..

وتقرأ مع هذا قول الله تعالى:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).

وبهذا يبدو الجزاء المتقبل من الكيان الإنساني، ويأتى الوحى من السماء، والعلم الذى يعلمنا ربنا، والذى نطلبه في الأنفس والآفاق امتثالا لأمره.. فيأتى العلم خيرا لنفوس، وتنحرف به نفوس. وصدق الله العظيم:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ونقف هنا عند مبدأ اللقاء بين العقول والقلوب من ناحية، والعلم الذى يبعث الله به رسله، والذي يكشفه الإنسان من ناحية أخرى.

نقف عند مبدأ اللقاء الذى يؤكد الوجود الكونى للإنسان والذى يجمع فيه بين المكونات الأرضية والسماوية.. وهو الكائن الذى اختاره الله لهذا التكوين.. وبهذا التكوين اختار له مهمة في الحياة..

-فكيف أعد الله الأب الأول لهذه المهمة؟

هذا هو السؤال الذى سنحاول الإجابة عليه، متذكرين الإحسان في الخلق إلى جوار الكرامة والرحمة. هذا الإحسان الذى نقرؤه في قوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ (السجدة: ٧).

وفى ضوء الإحسان والإكرام والرحمة نحاول أن نتخذ إلى الله سبيلا.

٣٢ـ صراع بين الخير والشر

إذا كان خلق الإنسان جامعًا بين الإحسان والتكريم والرحمة، فلقد جاء العلم تكريمًا ثانيًا للإنسان بعد الخلق.

وليتذكر كل إنسان ـ مهما يكن موقعه على خريطة الأرض أو عصور التاريخ ـ المدرسة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم.

المعلم فيها هو الله سبحانه وتعالى

والمتعلم فيها هو الأب الأول آدم عليه السلام

ومادة المعرفة فيها((الأسماء)) أوائل أي شئ.

وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (البقرة:٣١، ٣٢)

لم يكن آدم أول المتعلمين.. فالملائكة من قبله تلقوا من الله علما. والعلم في ذاته كرامة وتكريم. وما أكرم الله به آدم من العلم خصه به، فكان عنده علما وعند الملائكة ـ من قبل ـ غيبًا. واستوعب آدم ما علمه ربه.

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣).

هذا أول أمر تلقاه آدم من ربه ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ وقام آدم بما أمره به ربه. فأول تجربة لآدم كانت نجاحًا: استوعب وحفظ، وكانت عنده القدرة على الاسترجاع والتذكر.

فى هذه التجربة لا نسيان ولاخطأ. وفرق بين الأمرين: النسيان أن يسقط منك بعض الحقيقة. والخطأ أن تختار غير الحقيقة.

إلى هنا والموقف في طريق التكريم صاعد، دون اعتراض ولاعقبات..

وننتقل إلى مشهد آخر كان فيه آدم شاهدا لتصرفات غيره بعد أن كان مشهودا من غيره.

-﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٣٤)

ويأتى هذا المشهد في سورة الكهف في قوله تعالى:

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾

ولقد تحدث المفسرون عن إبليس وأصله. ولماذا كان في هذا المشهد؟ وما علاقة الجن بالملائكة؟ وهل يملك الجن وهو لايعدو أن يكون مخلوقًا أن يعصى ربه؟.

وإذا كان الله قد وصف الملائكة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فكيف خلق خلقا قادرًا على المعصية؟.

ونستعين بالآية التالية في سورة الكهف وهى قوله تعالى.﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ (الكهف:٥١).

خلق السماوات والأرض غيب، وخلق الإنسان غيب، ولا نملك فيه إلا الوقوف عند النص القرآنى، والأحاديث النبوية الصحيحة.

إن الجن ـ في القرآن الكريم ـ خلق آخر غير الملائكة: يقول تعالى:

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن: ١٤، ١٥).

ويفرق القرآن بين الجن والشياطين.. والمعنى اللغوى مدخل موضح: مادة: جن تفيد الاستتار وعدم الظهور والرؤية. تقول: جن عليه الليل إذا ستره. والجن ضد الإنس. هذا خفي وهذا ظاهر. والمجنون من كان عقله محجوبًا. والمجن العدة التى يتقى بها المحارب عدوه. والجنة هى ذات الشجر الملتف والمتكاثف الذى يستر من يدخله. فاشتقا قات الكلمة جميعا تفيد الاستتار وعدم الظهور، ولا تفيد المعصية بحال. فالله سبحانه وتعالى ذكر من الجن المؤمن والكافر. ومنهم الصالحون ودون ذلك. ونستطيع أن نرجع إلى سورة الجن لنرى بعض صنوفهم:

﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (الجن: ١٣-١٥).

أما مادة ((شطن))، ومنها الشيطان، فتفيد البعد. والشطن الحبل الطويل يستخرج بدلوه الماء من البئر. واستخدام اللفظ للدلالة على أي خبيث التصرف أو الأثر.. كأنه بعيد عن النفس والخير. بعض العرب تسمى بعض الحيات شيطانا. ولغويا: الشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن والدواب

تبقى كلمه ثالثة في هذا النسق بعد: الجن والشيطان، وهى: إبليس.

لغة: إبلس الرجل قطع به. وسكت. وإبلس من رحمة الله آي: يئس، ومنه سمى إبليس(لسان العرب)

فمدلول الجن الاختفاء وتقابل الإنس. ومن الجن مؤمن وكافر. ومدلول الشيطان: البعد ، وإبليس: اليأس من الرحمة والانقطاع. ولا يستخدم المدلولان إلا في الشر والإيذاء، وبخاصة في الجانب النفسى من حياة الناس.

وبهذا التحديد للمفاهيم تتضح أمامنا الآية: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ وندرك أن هذا من غيب الله الذى لا نعرفه إلا بالوحى، ونقف عند عبرته الكبرى الباقية: وهى الصراع بين الخير والشر. والطاعة والمعصية، والالتزام بحدود الله أو التعدى.. وهو صراع يلقاه كل إنسان في حياته، وتظل معه القصة حية.

ولقد كانت مخالفة إبليس لخالقه سبحانه وتعالى.. وهي مخالفة لأمر صريح: اسجدوا لآدم. فكان الرد رفضًا وحثييات رفض، ويبين القرآن أربعة جوانب في رفض إبليس، هي غاية ما يتخذه العصيان

- **الأول**: مبدأ الرفض ذاته أو المعصية.
- **الثانى**: الحالة النفسية المصاحبة للرفض.
- **الثالث**: الحالة الفكرية المصاحبة.
- **الرابع**: العناد والإصرار وإخضاع المستقبل لرفض الحاضر.

ولننظر في آيات القرآن لنتبين هذه الجوانب الأربعة:

-فى آيه سورة الكهف، يصف الله موقف إبليس فيقول..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾..هذا هو الرفض

–وفى قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

واستكبر هنا: هو الجانب النفسى المصاحب للرفض

وفى قوله تعالى..

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء:٦١)

نرى الجانب الفكرى المصاحب، وهو تفضيل النار على الطين، دون نظر إلى الطاعة في ذاتها.

وفى قوله تعالى في سورة الإسراء.

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢).

نرى الإصرار، ولقد كان طلب الإنظار لمزيد من غواية بنى آدم.

هذه الجوانب الأربعة، ألا تراها في بعض شياطين الإنس، وإن تعدد أسبابها؟ وهؤلاء الذين رفضوا الإسلام في مكة من الملأ من قريش، تمثلت فيهم هذه الجوانب جميعا، وإن تباينت مكوناتها ومدى الإصرار فيها..

كان منهم الرفض، والاستكبار، ومحاولة التبرير العقلى

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف:٣١)

ويرد عليهم المولى سبحانه ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (الزخرف:٣٢)

وكان منهم العناد. واستمع قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل:١٤) وقوله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

وكما نرى تشابه بين موقف كفار قريش وما كان من عصيان إبليس، نراه مع أكثر من نبى آذاه كفار قومه. وتقرأ قول الله تعالى عن نوح وقومه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح:٥ ـ ٧).

فمشاهد قصة آدم قديمة متجددة. وروايتها أكثر من مرة، بأكثر من زاوية، تدلنا على استمرارها في تاريخ الإنسانية، مع تنوع صورها ووجوب الحذر من مداخل الشيطان إلى النفس، ومن تبعه من شياطين الإنس.

٣٣ـ تحليل لخطأ آدم

لم ترد الإشارة إلى خطأ آدم صراحة في سورة الكهف، وإن جاءت في مواقع أخرى من القرآن كسورة البقرة والأعراف وطه..

ونقف هنا عند مقارنة بين خطأ وخطأ.. خطأ إبليس وأركانه، وقد سبق أن ذكرناها وهى أربعة: العصيان، والاستكبار، والتبرير الفكرى، والإصرار على الخطأ.

ولم يكن الأمر من آدم كذلك..

لقد شهد الحوار ورأى نتيجته، وكان عليه أن يأخذ من هذا الموقف الدرس الذى ينفعه في المرحلة التالية من حياته، وهى مرحلة السكنى في الجنة، بعد مرحلة الخلق والتعليم وفيها شهد عصيان إبليس ونتيجته المريرة، وتحددت به عداوته لآدم وأولاده..